مواعيد الفيلسوف

باتريك لوريو

كان ريمون كينو يشرح ـ بظلم ساخر ـ النجاح الهائل الذي أحرزه كتاب «الوجود والعدم» كما يلي:

«الحقيقة ان سارتر هذا قويّ جداً! ان ينشر عام ١٩٤٣ كتاباً يزن كيلوغراماً تماماً! إن جميع السمّانة الذي يبيعون بالوزن طحيناً او بطاطا سيكونون مضطرين الى ان يقتنوا نسخة منه في دكاكينهم!» والواقع ان كينو لم يكن مخطئاً: «فالوجود والعدم» يزن تماماً ألف غرام، وليس مؤكداً ان عدد مشتريه، في السنوات التي تلت صدوره، يطابق تماماً عدد قارئيه. فكم بين الذين بكوا غياب سارتر قد قرأوا حقاً هذه المقالة الثقيلة الهائلة؟ وكم بين الذين يحرّكون منذ اربعة ايام مباخرهم على الموجات والشاشات من هم قادرون على تذكّر مفاصل هذا الكتاب ـ فيما وراء العبارات الحماسية عن «سوء النية» وعن «صبيّ المقهى»؟ ومع ذلك، فليس لهذا أية أهمية، لأن الناس، بعد ان تستنفد تحياتُ التقدير الصادقة والمتكلفة كامل رصيدها، سيكون لديهم «الوقت كله» لقراءة سارتر...

وإذن، فان قارئه الحقيقي اليوم ليس هو مشاهد التلفزيون، وليس هو ذلك المستعجل الذي يكتب وهو جالس الى زاوية من طاولة، ما كان سارتر بالنسبة اليه. إن هذا القارىء الحقيقي يبلغ على الأرجح ما بين الخامسة عشرة والعشرين. فأمامه عشرات الكتب ـ منذ «مخطّط نظرية للانفعالات» الصغير الحجم (٦٥ صفحة) حتى «أبله العائلة» الهائل الحجم (زهاء ثلاثة آلاف صفحة، بالرغم من انه لم ينجز...) سيأخذ هذا القارىء الشاب، بين اوقات الامتحانات والمباريات، يعمل ويجدّ، ولن يكون سارتر، بالنسبة اليه، هذا المعاصر الخالد الذي يلقاه الناس في المقاهي او الشوارع. بل سيكون، على نحو أرصن وأكثر جديّة، الكاتب الكلاسيكي الذي يُراجع في المكتبة كسائر الأسماء الكبيرة في «الفلسفة الخالدة».

ويستطيع المستقبل ان يحتفظ من هذه الفلسفة، خاصة، بعدم انجازها العظيم. لا لتسجيل نواقصها، بل على العكس بابراز رفضها ان تتشكل كنظام لكي ترحّب بتيارات اهواء التي تخترقها كما تخترق قاعة تُركت ابوابها مفتوحة. والحق ان ليس ثمة بناء واحد من أبنية الفلسفة السارترية الكبرى أُغلق او شدّ. لا الدراسة المستفيضة عن الـ «بسيشه» (التي لم يكن «مخطط نظرية للانفعالات» الصادر عام ١٩٣٩ الا قسماً منها) ولا «الأخلاق» (التي وعد بها «الوجود والعدم»)، ولا الجزء الثاني من «نقد العقل الجدلي»، وكلها لم يصدر. إن البناء هنا شامخ بالتأكيد، ولكنه يعترف بتراجعاته الخاصة، ومآزقه، وحدوده. إن «مفاهيم العالم» ـ ما دامت هذه هي القضية ـ هي ثمينة حين تجامل، بدافع من حشمة، منظورات تُفلت منها. وقد أعطى سارتر، فيلسوف الحرية، النموذج الواضح في هذا الصدد.

والحق ان سارتر قد نظم هو نفسه، على هذا النحو، مسيرته في الفكر. فمنذ عام ١٩٣٦ نشر هذا الاستاذ الشاب في «ليسيه هافر» كتابه «الخيالي» الذي يدين فيه بمذهب الظاهراتيين الذي كان قد

درسه في برلين، أثناء اقامته بين ١٩٣٣ و ١٩٣٤. وهو لقاء أساسي، ليس فقط بالنسبة لتاريخ الفلسفة، بل بالنسبة لتاريخ الدُرجة (الموضة الشائعة) التي ستستولي فيما بعد على سارتر وعلى الوجودية. والواقع ان المعاش ـ من خادم المقهى الى مظاهرات الشارع ـ سينتقل، بواسطة ظاهراتية محوَّلة عن المهمة التي كان يرصدها لها مؤسسوها، الى الجدارة الفلسفية، شأنه في ذلك شأن سُكر برجسون او شمع ديكارت، وهو الذي سيحقق لسارتر الشهرة التي اكتسبها.

لنوضّح ولنبسِّط: فاذا كان الوعي، كما كتب سارتر ـ بعد هوسرل ـ «هو وعي شيء ما» فهذا يعني ان «الوعي ليس شيئاً، وانه غير موجود الا في «علاقته» بالعالم. وحين يعرّف سارتر هذا الوعي الذي كان علم النفس التقليدي قد سمّره في «موضوع» بأنه «فعل ارادي»، فهو يفتحه للحياة اليومية، العملية، التشعورية، الجماعية، ويشق له ـ في وجه التراث الفرويدي الذي اختار آنذاك ان يتجاهله ـ ما كرّسه في مكان آخر ب «دروب الحرية».

إن هذا التحليل للوعي ـ الذي يحوّله سارتر، كما ذكرنا ـ عن الفلسفة الألمانية ـ سيصبح حجر الزاوية وأساساً لمشروعه، وسيجد صداه في جميع معاركه ومسرحه وافكاره. والواضح، في الواقع ان الوعي، اذا لم يكن شيئاً «في ذاته»، فليس هناك جوهر للانسان، ليست هناك «طبيعة انسانية» تستطيع الاخلاق او العمل السلوكي ان ترجع اليها. إن ارادية الوعي تجبر الانسان على ان لا يوجد الا بموضوعه، اي بحريته. ومن هنا وُلدت الصيغ التي ابتلعتها بشراهة رياح العصر والتي يتكشف فيها الانسان السارتري « محكوماً عليه بان يكون حراً» حيث «يسبق الوجود الجوهر» الخ...

هذا التأكيد ـ المأساوي ـ للحرية، في «فرنسا التحرير» هو الذي أطلق شهرة السارترية. والحال انه اذا بقيت الحرية في اساس هذه الأونطولوجيا، فقد كان لا بدّ لسارتر ايضاً من ان ينظّر نقيض الحرية، الذي يعمل عمله، بديهياً، في ملحمة الوعي وفي تاريخ العالم. ولأنه لم يكن يملك ـ بدافع حتمية ـ نظرية ـ اللاوعي الفرويدي، فهو سيوسّع ـ شارحاً عدم تطابق بعض افعالنا مع بعض مشروعاتنا ـ نظريته القائمة على «النية السيئة» وعلى الارتهان (الاستلاب) اللذين حققا له حظوة كبيرة معروفة على الصعيد الروائي والسينمائي والعاطفي. ومن هنا ايضاً، تلك الصفحات التي تحفظ مكاناً واسعاً لـ «نظر» الآخر الذي «شيّأ» الحرية فان نظرية الارتهان تفتحه للتاريخ ولمصائب العالم. وآنذاك، نُحسّ قرب موعد تلاقي سارتر والماركسية.

وسيكون سارتر اميناً لموعد التلاقي هذا. وهو سيوافيه بعبقريته، ولكن كذلك ببعض الانقيادية، متنازلاً عن الكثير لقاء القليل. وقد لاحظ ريمون ارون في كتابه «تاريخ وجدلية العنف» ان هذه التنازلات للماركسية لم تكن تتعلق ابداً بالجوهر. ويبقى مع ذلك صحيحاً انه ابتداءً من ١٩٦٠ ـ موعد نشر سارتر لـ «نقد العقل الجدلي» ـ أصبحت الماركسية في نظره «فلسفة عصرنا التي لا يمكن تجاوزها» وسيقول كلود ليفي ستروس في ملحق كتابه «الفكر المتوحش» ان سارتر في «نقد العقل الجدلي»، لم يستطع عن طريق الماركسية الا ان «يجعل «الأنا أدرك» الديكارتي اجتماعيا» من غير ان يخرج منه. ولكن سارتر كان بحاجة لأن يقيم جدلية للوعي «العامل في مادية حقل عملي» ولم يكن لقاؤه بالماركسية، مع هذا الصعيد، على مثل العقم الذي اتهم به غالباً. فهو سيعارض «العملي ـ الداخلي» الذي يبتلع ويفسد التطبيق العملي الفردي، والتركيب المزيّف لـ «السلاسل»، بالكثافات الموجزة «للفريق المندمج» الذي يولّد التطبيقات السّيّدة» من مثل الاستيلاء على الباستيل ومظاهرات الشارع التي تفضي فيها ضرورة اتحاد الافراد المتفرقين الى التطبيق المشترك، الى توحيد التعدديات في «كل» واحد. وهكذا ينزلق سارتر تدريجياً من الثورة الى التمرد، ويصبح «رفيق الطريق» مرة اخرى يسارياً بفضل مطلب مؤثر ورائع: كيف يتم الانتقال من الذات الى التاريخ، من الانسان الى طبقته، من «الانا» الى «النحن»؟

سيكون أهمّ ما يفعله اولئك الذين يبحثون من اي طرف يتناولونه ان يعرفوا ما يستطيعون وما لا يستطيعون ان يطلبوا منه. لقد كان سارتر، في شغفه الفلسفي والأدبي، ورغم هذا الشغف، اكثر وعياً من اي مؤلف آخر بأن الانسان اذا لم تكن له قيمة إلّا بآثاره، فان هذه الآثار، بالمقابل، لا قيمة لها إلّا بالانسان الذي يُنتج فيها. ولهذا فاننا، في اي أثر نقرأه له، أمام نشاط انسان ينتج نفسه إنسانا «من أجل، ومع، وضد» آخرين يجب ان نكتشفه فيهم. إن كلاً من كتاباته مشروع موضع، مؤرّخ، ناشبٌ بوعي في العصر لا يهدف الى تجاوز عوارضه إلّا بالمضيّ عمقاً في الاندماج به.

وهذه «التاريخانية» الواعية والمفكرة لآثار سارتر هي التي تشرح صعوبة تعليمها الأكبر وتعدّد الوجهات التي تطبع انتاجه. ولأنه قد رفض باستمرار ان يضع انتاجه فيما وراء وما فوق الصراعات التي ينبغي خوضها، هنا وفي هذه اللحظة، ليمنح معنى لحياته كانسان ـ انسان كان يُنتج نفسه عبر كتاباته وما وراءها ـ فهو قد قدَّم عدة مرات عمله النضالي ـ ضد حروب الهند الصينية والجزائر ومحكمة راسل، والى جانب «الماديين» ـ على مشروعاته الفلسفية والادبية.

ولكن في فرنسا وحدها، خسف سارتر ـ المناضل نجم سارتر الكاتب. لأن مواطنيه كان يعوزهم الارتداد الى خلف. لأن «الجامعة» التي كان قد رفضها، رفضت من جهتها ان تهتم به. فمن الأفضل في فرنسان الّا يُذكر اسمه، بل الّا يَعرفه المرء حين يريد ان ينجح في الامتحانات. لقد كان بالنسبة للفكر المؤسساتي منافساً ومُزعجاً، في حين انه في الخارج ـ في اليابان وايطاليا والمانيا التي يعتبر فيها كتابه عن فلوبير («ابله العائلة») أعظم آثار القرن، يُدرس بصفته من اكبر المفكرين الذين طبعوا هذا العصر.

لا بدّ انه يقول: هذا أفضل. أفضل، لأن الفرنسيين، شباناً او غير شبان، يظلّون هكذا «احراراً بأن يقرأوه». ان يقرأوه على مسؤوليتهم. ان يقرأوه لا لأنه «في الـ نامج»، بل لأنه «ليس فيه»، ولأن فهمه وحبّه هما وسيبقيان فعلاً مجانيا، بلا مقابل: فعل تمرّد ضد كل ما هو مُمأسَس، فعل جريّة.

ترجمة «الآداب»